

وكانت دولة الروم (البوزنطيون) تعرف هذه الأديرة المحصنة ، مثال ذلك دير ماندراكيون Mandrakion الذي شيد بقرطاجنة قريباً من البحر ، وقد ذكره بروكوبيوس Procopius ، على أننا نشك في أنه كان للرهبان الذين عاشوا فيه أى شأن حربي . والمستقرون في الرباط أو الذين يلبون به معظمهم من المجاهدين في سبيل الله . والرباطات أولاً وقبل كل شيء قلاع وأماكن يتجمع فيها الجنود عند الثغور الإسلامية المعرضة للخطر . فهي تشبه القلاع عند أهل الغرب في أنها ملاذ يحتوى به سكان البلاد المجاورة له وقت الخطر . وتتخذ هذه الرباطات أبراج مراقبة لتحذير أهل البلاد المهددين وجنود الحاميات التي داخل البلاد وعلى حدودها الذين يستطيعون شد أزr المدافعين . ومن ثم كانت خطة الرباط من سور حصين يحيط به ، وتقوم فيه حمر للسكنى ومخازن للأسلحة والمؤن وبرج للإشارة . وهذا الطراز من العمارة الذي سنتناول تطوره بالحديث بعد ، كان يقام على نطاق صغير في كثير من الأحيان . فكان يقتصر في هذه الحالات على برج للراقبة وحصن صغير أشبه بالحصون البوزنطية التي كانت تشيد على الحدود ، وهذا هو العلة في كثرة عدد الرباطات التي ذكرها الجغرافيون . وشاهد ذلك ما روى من أنه كان في ما وراء النهر وحدها ما لا يقل عن عشرة آلاف رباط ( ابن خلكان ، ترجمة ده سلان ، ج ١ ، ص ١٥٩ ، رقم ٣ ) . وكانت

( ١٨ يولية سنة ١٨٩٩ ) . وفي ٢٢ أبريل عام ١٩٠٠ هزمه القائد لامي Commandant Lamy عند كوسرى على المجرى الأدنى لنهر تشارى ، وقد قتل في هذه المعركة كل من رباح ولاى . وظل رباح دائماً على سيرته العجيبة هذه اثنتين وعشرين سنة خرب خلالها إقليها بأسره من أقاليم السودان الأوسط .

[ ديلافوس Maurice Delafosse ]

الشتناوى

د الرباط ، : زاوية إسلامية محصنة . وقد وردت تفاسير مختلفة لهذه الكلمة واشتقاقها من الأصل « ربط » ، على أن أقرب هذه التفاسير إلى العقل هو ما جاء في القرآن : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ( سورة الأنفال ، الآية ٦٢ ) <sup>(١)</sup> والرباط في الأصل هو المكان يجتمع فيه الفرسان ويتكاثرون متاهين للقيام بحملة من الحملات . ويتصل الرباط أيضاً اتصالاً وثيقاً بمعنى تجهيز نقلة البريد والقوافل بالخيول . على أن هذه الكلمة أطلقت منذ عهد متقدم على منشأة دينية وحرية في آن اختص المسلمون بها دون غيرهم . ويتصل نظام الرباط بالجهاد ( انظر هذه المادة ) أى الذب عن بلاد الإسلام والعمل على توسيع رقعتها بجند السيف <sup>(٢)</sup> .

( ١ ) رقم الآية في المصحف الشافى هو ٦ ( ٢٠٤ ) .  
( ٢ ) المعروف أن الرباط هو الإقامة بالثغر المعرض

للمدو للذود عنه : « والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو ، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ، ثم صار لزوم الثغر رباطاً ... والرباط في الأصل الإقامة على جهاد العدو . » لسان العرب مادة « ربط » وأنظر ما سيجى في هذه المقالة نفسها . ( مهدى علام )

الشواطىء. تعج أيضاً بهذه الرباطات . من ذلك أنه كان ثمة رباطات على طول شواطىء فلسطين وإفريقية . وقد ذكر أن المنارات التي كانت تلحق بالرباطات أو تنشأ قائمة برأسها قد أتاحت للقوم بعث الرسائل من الإسكندرية إلى سبته Coute في ليلة واحدة .

ومن الواضح أن في هذا شيئاً من المبالغة . ومع ذلك فإننا نلاحظ أنه كان هناك نظام لإرسال الإشارات سريع سرعة لا بأس بها ، كما نلاحظ أن الإسكندرية قد ذكرت في هذا المقام ، والظاهر أن منارها كان يتخذ رباطاً . وكانت الرباطات موجودة أيضاً على شواطىء الأندلس . وكذلك قامت ثغور إسلامية على تخوم الممالك المسيحية وخاصة بعد مجىء المرابطين الذين استكثروا من الجهاد . وذكر ابن حوقل في كلامه عن صقلية أخباراً عجيبية عن الرباطات القريبة من بلمرم ( بالرمو ) ونحن نعلم أيضاً البلدة الصغيرة المعروفة باسم « رباطو » في جزيرة كوزو بالأرخبيل المالطى .

وقد استكثر الناس من إقامة المنشآت مدفوعين بغيرتهم على الدين ، وخاصة بإفريقية في أرباض مدن من قبيل طرابلس وصفاقس . ذلك أنه إذا أقام شخص رباطاً على نفقته أو عزز حصون رباط قائم كان ذلك عملاً من أعمال البر والتقوى . وكذلك كان من الثواب أن يحض المرء الناس على الانخراط في سلك الرباطات للجهاد في سبيل الإسلام وتعزيز

حامياتها ، ثم إن الثواب كل الثواب أن يبدأ المرء بنفسه . وذكر المقدسى أن الرباطات التي قامت على شواطىء فلسطين كانت تستعمل لأغراض أخرى من الأغراض التي يقصدها وجه الله . فقد كانت مناراتها تستخدم لتنبيه القوم عند اقتراب السفن النصرانية التي تحمل أسرى المسلمين الذين اتفق على تبادلهم . وكان كل امرئ يسعى حتى يكون له نصيب في هذا العمل ما وسعته طاقته .

وكان عبء تشييد الرباطات الكبيرة وكثير من الرباطات الصغيرة يقع بطبيعة الحال على كاهل حكام البلاد . وكان رباط المنستير ( انظر هذه المادة ) هو أول رباط أنشئ في إفريقية ، شيده الوالى العباسى هرثمة بن أعين عام ١٧٩ هـ ( ٧٩٥ م ) . وكان القرن الثالث الهجرى ( التاسع الميلادى ) هو العصر الذهبي للرباطات ، فقد ضاعف الأغلبية عدد الرباطات الحقيقية والمحارس على طول الشواطىء الشرقية والمحرس منطقة محصنة تضم حامية صغيرة أو برج مراقبة . وقد احتفظت المنستير بتفوقها في هذا المضمار ، ويقال إن النبي قد تنبأ لها بذلك . وكان الشهداء في القرن الثانى عشر تحمل رفاتهم من المهديّة إلى هناك لتشرى عظامهم في هذه البقعة المباركة . واكتسب رباط سوسة الذى أنشأه زيادة الله الأعلى عام ٢٠٦ هـ ( ٨٢١ م ) شأنًا عظيمًا . والمعروف أن سوسة كانت الثغر الذى يجر منه الجند لغزو صقلية . وكانت بقية الشواطىء المغربية

أقل ازدهاماً بهذه الرباطات إذا قورنت بالشاطىء الشرقى لإفريقية الذى كان عرضة لهجمات الروم المباشرة ، أو كان قاعدة تخرج منها الحملات البحرية . على أنه كان ثمة رباطات على شاطىء المغرب الأقصى بعضها في نكور وأرزة ، وقد قصده رد غارات قرصنة الشمال ، وبعضها في سلا لتيسير أسباب الغارة على مراطقة برغواطة ( انظر هذه المادة ) .

وكان معظم هذه الرباطات منشآت حكومية ، إلا أن خدمة المحاربين فيها لم تكن بأى حال من الأحوال إجبارية . فرجال الرباط ( المرابطون ) متطوعون من أهل التقى والورع نذروا أنفسهم للذب عن الإسلام . وقد يلتحق بعضهم بالرباط بوصفه تكية يقضون فيها بقية أيامهم ، على أن الغالبية الكبرى كانت تقضى فيه أياماً من السنة محدودة طالت أو قصرت . وكانت الحاميات في الرباطات تستبدل استبدالاً تاماً عدة مرات في السنة .

وكان استبدال الحامية برباط أرزلة يتم في عاشوراء ( اليوم العاشر من المحرم ) وفي بداية رمضان ، وفي عيد الأضحى . وكان يقام لهذه المناسبة سوق هام . وكانت حاميات هذه الرباطات تدعم في حالة الخطر برجال ذوى بأس من البلاد المحيطة . وقد جرت الحال على استدعائهم بقرع الطبول ( في فلسطين ، كما جاء في المقدسى ) . وكان أهل الرباطات ينفقون حياتهم في التدريب العسكرى وفي الحراسة كما كانوا ينفقونها أيضاً في التعب . وكان المرابطون يعدون أنفسهم للاستشهاد بالصلوات الطويلة

يقيمونها تحت إرشاد شيخ من الشيوخ المجلين . وقد كشف لنا الرحالة ابن حوقل عن جانب مظلم لهذه الصورة الحافلة بأسباب الهداية والتهديب . فهو يقول في حديثه عن رباطات بلرم ( بالرمو ) في القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) ، وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالبطلين والفساق والمتهمين شيوعاً وأحدًا ناعثاً أعناقاً قد عملوا السجادات في وجوههم منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات وأكثرم يقودون ويلوطون وإنما آووا الى هناك لعجزهم وعدم السكن ومهانة أنفسهم ،

وقد تجلّت الصفتان الحرية والدينية لحياة المرابطين في عمارة الرباطات القديمة التي مازالت قائمة ، إذا حفظت بلاد تونس برباطى المنستير وسوسة . ولا يزال أولها يبعث المهابة في النفس ، غير أن التجديدات الكثيرة التي طرأت عليه قد عقدت من خلة البناء الأصيل . ويمكن أن نعد الرباط الثانى ذا الخطة البسيطة مثلاً لهذه الرباطات . فهو بسوره المربع المرتفع الذى تكتشفه الأبراج نصف المستديرة من أركانه ووسطه يذكرنا بحصون الروم ( البزنطيين ) في هذه البلاد . وينفتح مدخله الوحيد في منفذ من المنافذ القائمة في منتصف السور . وتمع سلم يهبط درجه إلى الداخل حيث تقوم الباحة الوسطى تحيط بها أروقة مستوفة وصوامع غاية في البساطة . والصعود إلى الطابق الأول أيضاً من صوامع تقوم على الجوانب الثلاثة للباحة . وتمتد على طول الجانب الرابع

قاعة بها محراب . وهذه القاعة هي مصلى الرباط . وبمحايط القبة كوى للدفاع . ويقوم على مستوى الشرفات التي تعلو هذا الطابق الأول باب برج الإشارة ، وهو برج أسطواني الشكل يرتفع من القاعدة المربعة لإحدى الزوايا الخارجية القائمة في ركن من أركان الرباط ويشرف على الحصن من ارتفاع يبلغ ستين قدماً تقريباً . وهناك قبة صغيرة تقوم أيضاً فوق الشرفات تتوج الساحة المربعة التي أمام المحراب في المصلى كما هو الشأن في مساجد هذا العهد .

ويردنا رباط سوسة إلى عهود البطولة عندما كانت هذه المؤسسة تصطبغ بطابع حربي واضح ، وقد كان لهذه الثغور شأن حربي هام على تخوم البلاد الإسلامية ، كما أنها احتفظت بهذه الصبغة طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر بالمغرب الأقصى حيث أبقى القتال الذي كان مشوباً مع النصارى في الأندلس على سنة الجهاد . ونحن نعلم أن الرباط الذي شيد على جزيرة من جزائر السنغال الأدنى كان هو المعقل الذي خرج منه برب لمثونة للجهاد ، ومن ثم عرفوا بالمرابطين ، وهو الاسم الذي اشتهروا به في التاريخ (انظر مادة المرابطين) .

وكان للوحديين الذين جاءوا من بعدهم رباطاتهم الخاصة . وهناك رباطان من رباطاتهم على الأقل تستأهل الذكر ، وهما : رباط تازا (انظر هذه المادة) الذي حصنه عبد المؤمن عام ٥٢٨هـ (١١٣٨ م) في الوقت الذي خرج فيه على رأس حميد بن المرابطين ، وهي الخلة

التي اصططبت بصيغة الجهاد . ورباط الفتح ، الذي بقي اسمه علماً على مدينة رباط (انظر هذه المادة) ، كان على أيسر تقدير المعسكر الكبير الذي تتجمع فيه الجيوش التي تستعد لعبور البحر إلى الأندلس ، ولعله كان الثغر الذي تبحر منه هذه الجيوش . وقد بقيت مكانة هذه المؤسسة الموحدية إلى ما بعد زوال الأسرة التي قامت بتشييده . وكانت رباط ، أو بالأحرى مدينة شالة الصغيرة المجاورة لها — وتعتبر أيضاً رباطاً — هي المقبرة التي يدفن فيها أمراء المرينيين ، وكانوا يبتغون من ذلك أن يكون لهم أجر المقاتلين في سبيل الله .

وكان القوم لا يزالون يشيدون المحارس وأبراج الإشارات في القرن الرابع عشر ويتخذونها رباطات تنبهم إلى نزول النصارى على الشاطئ . ويذكر ابن مرزوق مؤرخ أبي الحسن المريني وجغرافيه الخاص في حديثه عنها أنه كان يرباط في هذه المعقل جنود من المرتزة . ولم تكن هذه المحارس والأبراج رباطات بالمعنى الصحيح للكلمة ، وكانت حامياتها من المتطوعين . على أننا إذا صادفنا بالمغرب الأقصى في القرن السادس عشر رباطات من قبيل رباط آسني كان له شأن حربي في الاتصال مع البرتغال ، فإننا نجد أن صفة هذه الرباطات قد تغيرت في الشرق ، أي في البلاد التي أصبحت بنجوة من تهديد الكفار ، وعزف أهله عزوفاً تماماً عن التدريب العسكري واستبدلوا به حياة قوامها الزهد والتشفي وتريد الصلوات التي

Van Berchem ذكر الرباط ، فهي الكتابة المنقوشة في زاوية الملك أشرف إينال (٥٨٦٠ = ١١٤٥٥ م) .

وقد بلغت موجة التصوف الشرقي إلى بلاد البربر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . واحتفظت هذه البلاد أيضاً بكلمة رباط ، ولكنها كانت تطلق فيها على الزاوية (انظر هذه المادة) وهي المكان يجتمع فيه الزهاد حول شيخ من الشيوخ أو حول ضريح واحد منهم . ومن الحقائق التي لا تقبل الجدل أن ابن مرزوق يفرق في هذا المقام بين الزاوية والرباط ، على أن هذه التفرقة ما زالت مع هذا غامضة . ذلك أنه يذكر لنا في حديثه عن الزوايا التي أنشأها شيخه أبو الحسن أن كلمة الخانقاه ، وهي كلمة فارسية ، لها معنى كلمة رباط ، ثم يضيف قائلاً إن الرباط في مصطلح الفقهاء هو الانقطاع للجهاد وحماية الثغور ، أما عند الصوفية فهي تدل على المكان ينقطع فيه المرء لعبادة الله . والظاهر أن هذا الاستعمال الأخير هو الذي كان شائعاً في عهده . ورباط المصنوع هو مجموع المنشآت الخيرية التي قامت بالقرب من تلسان حول ضريح الصوفي الشهير سيدي بو مدين ، وقد أقيم رباط تسكدلت إلى الجنوب الغربي من وهران لإحياء لذكر ولي من أولياء بني إزنان . ويضم رباط تافرو تاسلت القائم على حدود وادي سبو قري أميرين من أمراء المرينيين وأروقة للطلاب (المقرئين) .

كانت سنة الرباطات القديمة . وقد كان تطور التصوف وتشعب المتصوفة فرقا وطرائق منذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أو القرن الذي سبقه هو العلة التي بررت استمرار هذه الثكنات باتخاذها زوايا وتكايا . وهذا التطور الذي أصاب الرباطات ، وكان منشؤه في بلاد فارس ، أخذ ينتشر منها إلى العالم الإسلامي كافة . وفي المشرق اندمج الرباط في الخانقاه الماثورة عن الفرس . ويشير ابن جبير (طبعة رايت Wright ودي غوي de Goeje ص ٢٤٣) إلى خانقاه أنشأها الصوفية في رأس العين إلى الشمال من صحراء الشام ، وكانت تعرف أيضاً باسم الرباط . على أننا إذا وجدنا كتاباً من الكتاب مثل ابن الشحنة يصف حلب ويفرق فيما يبدو بين خانقاه والرباط فإن هذا التفريق يغيب عن أذهاننا . ويحج لنا أن نذهب إلى أن الخانقاه كانت مستقراً دائماً لأناس يقضون فيها كل حياتهم ، في حين أن الرباطات كان ينزلها رجال من الصالحين مدداً محدودة كما ذكرنا من قبل . على أننا لا نستطيع أن نجزم بأن ذلك هو الفارق بينهما . ومهما يكن من شيء فإن الرباطات الأربعة القائمة في مدينة حلب (كان أحدها ملحقا بمدرسة من مدارسها ويضريح منشؤه وكان بالضريح قراء وصوفية) قد فقدت كل صفاتها الحربية ، وكان هذا هو حال المرابطين القائمين بمكة ، وهما اللذان ذكرهما ابن بطوطة . أما في القاهرة فإن الكتابة الوحيدة التي وجد فيها فإن برشم

ويمكننا أن نربط هذا الاستعمال الخاطئ. للكلمة العربية القديمة بالتغير المائل الذي طرأ على كلمة مرابط ، فهي تطلق على ولي من الأولياء. اكتسب احترام من يلودون به وتبجيلهم بفضل خلاله الخاصة أو بفضل أخذه الولاية الصوفية عن غيره ، أو بفضل علاقته بولي ( انظر هذه المادة ) آخر من الأولياء .

أما في الأندلس آخر بلاد الجهاد ، فيحق لنا أن نذهب إلى أن الرباطات كانت ترصع تخومها التي كانت تتغير على تعاقب الأزمان وفقاً لما كانت تلقيه إعادة فتح الأندلس من أعباء على البلاد الإسلامية . والتحقق من ذلك يقتضينا أن نتنظر حتى تمدنا دراسة النصوص والبحوث التي يشرف عليها كل من هرناندز F. Hernandez وتراس H. Terrasse للمنشآت الحربية بالأندلس من تفصيلات دقيقة عن تاريخ معاقليها والأغراض التي أقيمت من أجلها . وقد يؤدي بنا تطور معنى كلمة رباط إلى القول بأنها أصبحت لا تتدل بعد على الحصن . وكثيراً ما يستعمل كتاب العرب الأندلسيون وكذلك المقرئ والفقراء الذين ذكرهم ابن مرزوق كلمة رباط للدلالة على الجهاد بمناه العام المقصود على الدفاع . وقد انتقلت هذه الكلمة إلى اللغة الأسبانية بصيغة رباتو Rebato كما بين أوليفر آسين Oliver Asin وهي تدل على الهجوم المفاجئ . تقوم به فرقة من الفرسان وفقاً للفن الحربي الإسلامي . وإذا كان اللفظ العربي قد

فقد معناه الأصلي ، فإننا نجد مع ذلك كلمة أخرى مشتقة منه كانت شائعة الاستعمال مع تغير طفيف في معناها . ذلك أن أسبانيا قد شاهدت الرباطات تتكاثر فبقيت آثارها في أسماء الأماكن بصيغ : Ravita ، Rápita ، Rabida . وكان البربر يعرفون أيضاً كلمة رباطة . والرباطة صومعة يعتزل فيها رجل من الصالحين يعيش محاطاً بأتباعه ومريديه ( انظر المقصد ، ترجمة كول Colin ص ٢٤٠ ، ومادة زاوية ) . وكل الدلائل تشير إلى أنها كانت جميعاً على سنن واحد في أنحاء شبه الجزيرة كافة ، ويتصل ازدياد عدد الرباطات في أسبانيا وإمكان قيام الالتباس بينها وبين الرباطات بنزعة الورع الصوفية الكبرى التي نشأت في بلاد فارس وأدت إلى إحلال الخانقاه والزاوية ( تعرف بالخانقاه في المشرق ، والزاوية في المغرب ) محل المنشآت التي كانت تغلب فيها الصفة الحربية على الصفة الدينية ، وذلك في عصر البطولة عند المسلمين .

#### المصادر :

- ( ١ ) أبو العرب : *Classes des savants* : طبعة وترجمة ابن شنب ، الجزائر سنة ١٩٢٠ ( ٢ ) البكري : *Description de l'Afrique septentrionale* طبعة وترجمة ده سلان ، الجزائر ١٩١١ - ١٩١٣ ( ٣ ) الإدريسي : *Description de l'Afrique et de l'Espagne* طبعة وترجمة دوزي ودي غوي ، لندن سنة ١٨٦٦ ( ٤ ) ابن حوقل : طبعة وترجمة

د دي سلان في المجلة الآسيوية سنة ١٨٤٢ ، ١٣ ، ص ١٦٨ ( ٥ ) المؤلف نفسه : *Description de Palerme* ترجمة Amari في المجلة الآسيوية سنة ١٨٤٥ ، ١٣ ، ص ٩٦ ( ٦ ) ابن خلكان ، ترجمة ده سلان باسم *Biographical Dictionary* ، ١٣ ، ص ١٥٩ ، رقم ٣ ( ٧ ) المقدسي في كتاب *Palestine under the* : Lo Strange *Moslems* ص ٢٣ - ٢٤ ( ٨ ) ابن الشحنة : *Les perles choisies* ترجمة Sauvaget ، بيروت سنة ١٩٣٣ ، ١٣ ، ص ١٠٧ ( ٩ ) ابن مرزوق : المسند ، طبعة وترجمة ليفي بروفنسال في *Hesperis* ، ٥٣ ، سنة ١٩٢٥ ( ١٠ ) Dozy : *Supplement aux dictionnaires arabes* مادتي رباط ، ومحرس ، باريس سنة ١٨٩٤ ، ص ١٦٢ ، رقم ٣ ، ٤٠٨ ، رقم ٤ ( ١١ ) *Les Marabouts* : *Revue de* : Douité *l'histoire des Religions* ، ٩٠ - ٩١ ، مستخرج سنة ١٩٠٠ ( ١٢ ) H. Basset et *Ghella* : E. Levi-Provençal سنة ١٩٢٣ ( ١٣ ) *Note sur* : G. Marçais *les ribats en Berberie* في René Basset : *Mélanges* باريس سنة ١٩٢٥ ، ٢٣ ، ص ٣٩٥ - ٤٣٠ ( ١٤ ) المؤلف نفسه : *Manuel d'art* : *Musulman* ، ١٣ ، ص ٤٥ - ٤٦ ( ١٥ ) *Origen arabe de* : Jaime Oliver Asin *rebato, arroba y sus homónimos* ، H. Basset et H. Terrasse ( ١٦ ) *Sanctuaires et forteresses almohades* ( مجموعته *Hesperis* ) سنة ١٩٣٢ : *Le ribat de Tit* ، ص ٣٣٧ - ٣٧٦ .

الفتتاوي [ مارسيه George Marçais ]

والفضل في إنشاء رباط الفتح يعود إلى الموحدون ( انظر هذه المادة ) وقد كان موقع العدوتين ، عدوتي مجرى أبي الرقراق مسرحاً لمحات من العهد الروماني وما قبل العهد الروماني . فقد شيدت مدينة سلا في عهدها البوني ثم في عهدها الروماني على الضفة اليسرى للنهر أبعد من ذلك شمالاً في موضع الجبابة المرينية الملكية لشالة ( انظر هذه المادة ) وكان من نصيب المدينة الإسلامية سلا الواقعة على الضفة اليمنى أن تقوم منذ بداية القرن الحادي عشر بحماية رباط الفتح من غارات هراطقة برغواطة ( انظر هذه المادة ) في الوقت الذي كانت فيه هذه المدينة قصبة مملكة إفرانية صغيرة . وقد قامت سلا بتحصين رباط ( انظر هذه المادة ) على الضفة الأخرى لنهر أبي الرقراق استقرت فيه على الدوام جماعة من المتطوعين المؤمنين